السّردُ الموسوعيُّ في التّراثِ النُّثريِّ العربيِّ
الإمتاع والمؤانسة لأبي حيّان التّوحيدي أنموذجاً

Encyclopedic Narrative in the Arabic Prose Heritage
Al-Imtā wa al-Mu'ānasa by Abu Hayyan al-Tawhidi as a Model

د. كريم الطيبي

الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين – تطوان (المغرب)

karimtaibi1988@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2021/04/24 **تاريخ القبول: 2021/06/06**

ملخص:

تهدف الدّراسة إلى رصد طبيعة السّرد العربي القديم، من خلال دراسة سمة الموسوعيّة التي تطبع النّصوص النثرية العربيّة القديمة بشكل لافت، مؤشّرة على الخصوبة المعرفيّة ووفرتها، وامتداد أطراف العلوم وتشعّبها لدى ثقافة الأديب العربيّ، وقد تتبّعنا هذه السّمة في كتاب "الإمتاع والمؤانسة" لأبي حيّان التّوحيدي باعتباره خطابا قائمًا على السّرد الموسوعيّ، لنتعرف تجلّياتها وأشكالها ووظائفها. الذي يترحّل فيه مؤلّفه في ضروب المعارف وأصناف المجالات العلمية مستحضرا مختلف الأجناس التعبيريّة والأنماط القوليّة، الأمر الذي يدفعنا إلى الإقرار بأنّ النثر العربيّ القديم نثر يقوم على الإمتاع والإنفاع.

الكلمات المفتاحية: السرد، الأدب العربي، الموسوعية، أبو حيان التوحيدي، السردانية العربية.

Abstract:

This study aims to observe the nature of the ancient Arabic narrative, by studying the feature of the encyclopedia that normalizes the ancient Arabic prose texts in a striking way, indicating the richness and abundance of knowledge, and the extension and bifurcation of the knowledge in the culture of the Arab writer. We have followed this feature in the book " Al-Imtāʿ wa al-Mu'ānasa " by Abu Hayyan al-Tawhidi as a discourse based on the encyclopedic narrative, to know its manifestations, forms and functions.

Keywords: narration, Arabic literature, Encyclopedic, Abu Hayyan al-Tawhidi, Arabic Narratolog**.**

مقدّمة:

نروم في هذه الدّراسة تحليل قضيّة السّرد الموسوعيّ في نصّ الإمتاع والمؤانسة بوصفه نصّا يمثل سمة التنوّع الخطابي الّتي ميّزت الكتابة النثرية لدى أبي حيّان التّوحيدي؛ فهو كتابٌ يندرج ضمن الخطاب التّرسّلي الذي ينتهج فيه صاحبه سياسة تعبيرية قائمة على التّجميع والانتخاب وتنوّع المعرفة وتعدّد التّخصّصات؛ إنّه مادّة معرفية دسمة حافلة بالأخبار والأقوال والأشعار والحكم والأمثال وسائر الأنماط الأدبية كالمناظرة والمفاضلة والدّعاء...إلخ، وهذا ما يجعل الكتاب يتأطّر ضمن الكتب الموسومة بالموسوعية التي لا تقف عند علم واحد، أو موضوع محدّد، بقدر ما تجول في ملكوت المعارف الإنسانيّة، وتصول في أمداء اهتمامات الإنسان في ذلك العصر، ويؤكّد هذا أنّ الرّسالة بوصفها جنسًا أدبيّا ليست مؤطّرة بمعايير أجناسية محدّدة، بقدر ما هي جنس قولي منفتح وشموليّ يحتضن أنواعا أدبية عديدة، وهو ما يتجسّد في كتاب "الإمتاع والمؤانسة"؛ إذ إنّ هذه الرّسالة تشمل أنواعًا أدبية كثيرة كالمحاورة والمناظرة والمفاضلة والمفاخرة والوصية... كما أنّ صيرورة مؤلفات التوحيدي لا تنتظم وَفق نسق مضبوط؛ بل تنبني على استراتيجية تجميع الأخبار واصطفاء المعارف وتنويع مصادرها وتقديم كلِّ هذا في قوالبَ سردية تستثمر الإمكاناتِ الجماليةَ الَّتي تتيحها اللغة، هذه المنهجيّة جعلت الدارسين يذهبون إلى اعتبار أبي حيان التوحيدي "جمّاعة أكثر منه مؤلفا" وهناك من اعتبره من "الكتّاب ذوي الثقافة العامة".

* **أهمّية البحث:** تكمن أهمية هذه الدّراسة في كونها تعيد قراءة النصّ التّراثي من منظور حديث يستفيد من أدوات تحليل الخطاب ونظريّة الأجناس وبلاغة النّوع. إنّه اكتشاف لخصوصيّة السّرد العربي القديم وكشف لخصائصه المميّزة وسماته الفريدة.

* **منهج البحث:** تستثمر الدّراسة المنهج التحليليّ الوصفيّ بوصفه منهجا جديرا برصد تشكّلات السرد الموسوعي في هذا كتاب الإمتاع والمؤانسة، كما تستند على خلفيات نظرية متنوعة ننتفع بها في الوصول إلى نتائج مثمرة ومن أبرزها: نظرية الأجناس، وبلاغة الأنواع.

* **فرضية البحث وإشكاله:** تنطلق الدّراسة من فرضية مركزية مفادها أن الموسوعية تعدّ سمة مميّزة لهويّة النص النثريّ العربيّ القديم عامّة وكتاب الإمتاع والمؤانسة على وجه الخصوص. وتحاول، بناء على هذه الفرضية، الإجابة عن الأسئلة الآتية: ما تجليّات سمة الموسوعية في كتاب الإمتاع المؤانسة؟ وكيف تتشكّل وتصنع هُويّة نصوص الإمتاع؟

* **بنية البحث:** اقتضى مرام هذه الدّراسة طَرْحَ إشكال تجنيس كتاب "الإمتاع والمؤانسة" إذ أثار هذا المؤلّف إشكالا واسعًا؛ حيث اختلف الدّارسون في تصنيفه؛ فهناك من يعدّه مجموعة من المسامرات، وهناك من يعتبره محاورات، وهناك من زعم أنه عصيٌّ عن التجنيس وأقحمه في خانة النصوص السردية التّراثية كألف ليلة وليلة. وأمام تعدّد آراء الباحثين وتضاربها، حاولنا التّدليل على أنّ الكتاب ينتمي لجنس الرسالة، الرّسالة بوضعها في إطارها التاريخي وسياقها الثقافي. كما سنسعى إلى رصد تجلّيات السرد الموسوعي في هذا الكتاب من خلال تتبّع الذات الكاتبة وافتحاص تجلّياتها النّصيّة.

أولا/ الإمتاع والمؤانسة وسؤال التجنيس:

يعدّ تجنيس كتاب الإمتاع والمؤانسة من المسائل التي استنفرت اهتمام الدَّارسين والباحثين الذين قاربوا هذا الكتاب، وإن كانت محاولاتهم التجنيسيَّة تحوم حول نوع واحد إلا أن هناك بعض الاختلافات الجوهريّة الملموسة في تجنيسهم. والملاحظ أنّ أغلب الباحثين ذهبوا إلى الإقرار – مع محققيْ الكتاب أحمد أمين وأحمد الزين– أن الكتابَ "هو مجموع مسامرات في فنون شتى حاضر بها (أبو حيان التوحيدي) الوزير أبا عبد الله العارض في عدة ليال"[1]، وهناك من حَادَ عن هذا المنحى ليعتبر كتاب الإمتاع والمؤانسة محاورات[2]، بيد أنّ المقارباتِ المستجدّةَ التي تصدّت لكتابات التوحيدي، أعادت النَّظر في تجنيس "الإمتاع والمؤانسة"، إذ أكّدت أنه كتابٌ ينتمي لجنس الترسّل، وجاء في صيغة مسامرات، أي إنّ جنسَه العامّ هو الرسالة، ولكن بنيته الداخلية عبارة عن مسامرات[3].

ونذهب إلى اعتبار كتاب الإمتاع والمؤانسة رسالةً تحتضن في تضاعيفها أنواعًا أدبيّة متنوعة كالمسامرة والمحاورة والمناظرة والمناجاة والدّعاء والمفاضلة، وأبو حيّان نفسه جنَّس

كتابه وأطره ضمن نوع "الرّسالة" ويتّضح هذا في قوله: "إلا أنّ الخوضَ فيه على البديهة في هذه السّاعة يشُقّ ويصعب بعقب ما جرى من التفاوض، فإن أذنت جمعته كله في رسالة تشتمل على الدقيق والجليل، والحلو والمرّ، والطرمي والعاسي، والمحبوب والمكروه؛ فكان من جوابك لي: اِفعل"[4]. يتَّضِح، إذًا، أنّ أبا الوفاء قَبِل مُقترح التوّحيدي القاضِي بتجميع "المادة الشفهية" وما جرى من الحوارات بينه وبين الوزير ابن سعدان وتحويل كلّ ذلك إلى رسالة ومن ثمّ فكتاب الإمتاع والمؤانسة في مجمله رسالة كتبها أبو حيّان لصديقه أبي الوفاء يحكي فيها تفاصيل الأحداث التي وقعت في مجلس الوزير، والملاحظ أنّ الباحثين الّذين اعتبروا الكتاب مسامرات إنَّما صدروا عن تجنيس الكتاب باعتباره "مادة شفهية"، أمّا الكتاب، في صيغته النهائية؛ أيْ بعد الانتقال من مرحلة الشفهيّة إلى مرحلة الكتابة، رسالة صاغها التَّوحيدي صياغة مخصوصة لكي تستجيب للمعايير والضَّوابط التي حدّدها أبو الوفاء وتتضمَّن هذه الرسالة بوصفها إطارا عاما أنواعا أدبية متنوعة، وأشكالا خطابية مختلفة.

ثانيّا/ التوحيديّ والسّرد الموسوعي:

ينهض أبو حيَّان التَّوحيدي بدور المتكلِّم الرَّئيس في كتاب الإمتاع والمؤانسة، فهو المؤلّف الذي حوّل موادّ الكتاب الشفوية إلى نصٍّ مكتوبٍ، كما أنّه السّارد الذي يضطلع بفعل حكي المسامرات والمحاورات التي دارت في مجلس الوزير ابن سعدان، إضافة إلى كونه الشخصية الأساس التي شاركت في وقائع ومجريات تلك المسامرات. انطلاقا من هذا، يمكن القول إنّ الهويّات الثلاثة قد اجتمعت في هذا الكتاب[5]. وقد نحت أبو حيان التوحيدي الهُوِيّة السرديّة الموسوعية في هذا الكتاب من خلال تنوّع المادّة المعرفيّة التي عرضها في صفحات الكتاب، التي تعالج قضايا أدبية ونقدية وبلاغية، كما تطرق مضامير متنوعة كالسياسة والدين والفلسفة والتصوف والحياة الاجتماعية... ولم تكن هذه الحقيقة النّقدية لتخفى عن قرّاء نثر التّوحيدي؛ فقد أشار إليها عديد من الدّارسين، قديما وحديثا؛ إذ ذكرت ألفت كمال الروبي أنّ "من أهم السمات الأدبية لمحاورات التوحيدي أنها أنجزت على أرضية سردية؛ حيث مثل السرد إطارا خارجيا يحتوي المحاورة"(الروبي، 1995م: 156)، ويؤشّر

هذا على شموليّة النّص السّردي باعتباره حاملا بأجناس تعبيريّة عديدة ومعارف وعلوم مختلفة. ولم يختلف هشام مشبال عمّا سبق، بل قدّم توصيفا نقديّا دقيقا لقضية السّرد الموسوعي التي وسمت كتاب الإمتاع والمؤانسة، وهي "الافتنان السردي"، يقول: "السرد في نص الإمتاع والمؤانسة هو النموذج الأمثل لعرض الأحداث والوقائع وترتيب الأفكار، ذلك أنّ الموسوعية بصفتها سمة مميزة للخطاب متنوع الموضوعات أو ما سنسميه بالافتنان السردي"(مشبال، 2015م: 109)، ويوضّح هذه الفكرة أكثر قائلا: "يوازي اختلاف أنواع السرد وأشكاله موسوعية الخطاب الذي يسعى إلى التأثير في الوزير وتخليق سلوكه وتهذيبه. وهو سرد لا يخلو في الحقيقة من مضمون أخلاقي وفلسفي وأدبي وعلمي"(نفسه، 112).

ومن خلال هذا، يمكن القول إنّ أبا حيّان التّوحيدي نموذج للأديب[6] الموسوعي، فهو يعدُّ واحدًا من الأدباء الذين صدروا عن قدمٍ راسخةٍ في العلوم باختلاف أنواعها، وتمكُّنٍ وإلمامٍ كبيرين بأدبيات التَّأليف، وتحصيلٍ شاملٍ ومعرفةٍ موسوعيّةٍ ممتدّة الأطراف على مجالات متنوّعة؛ فقد وصفه صاحبُ معجمِ الأدباء قائلا: "كان متفننا في جميع العلوم من النحو واللغة والشعر والأدب والفقه والكلام على رأي المعتزلة... وهو مع ذلك فرد الدّنيا الذي لا نظير له ذكاء وفطنة وفصاحة ومكنة، كثير التحصيل للعلوم في كل فنّ حفظه واسع الدراية والرواية"(الحموي، 1993م: 1924). وعَدّه المستشرق آدم ميتز "أعظم كتاب النثر العربي على الإطلاق"(ج2، ص: 442)، ويقول زكريا إبراهيم راصدًا صورة أبي حيان في الإمتاع والمؤانسة: "والمتأمل في كتاب الإمتاع والمؤانسة – مثلا – يعجب لثقافة أبي حيان الواسعة، واطِّلاعه الغزير، إذ يجد في هذا الكتاب مسائل من كل علم وفن: فأدب، وفلسفة وحيوان، وأخلاق، وطبيعة، وبلاغة، وتفسير، وحديث، ولغة، وسياسة، وفكاهة، ومجون وتحليل لشخصيات فلاسفة العصر وأدبائه وعلمائه، وتصوير للعادات وأحاديث المجالس"(إبراهيم، 1998م: 5). واعتبره محمد عابد الجابري من "الكتّاب ذوي الثقافة العامة"(الجابري، 2018م: 77). وغير بعيد من هذا تؤكد هالة أحمد فؤاد أن التَّوحيدي "نموذج إشكالي لمفكر موسوعي، يتأبّى على التصنيف أو الحصر في مجال معرفي بعينه، وربما يمكن

أن نطلق عليه "المفكر البيني"، ذلك أنّه بوصفه ذاتا مفكرة وكاتبة، يتحرك بيسر ورشاقة عقلية لافتة بين الحقول المعرفية المتنوعة والمتباينة"(فؤاد، 2015م:5). لقد شكّل أبو حيّان نموذجا يمثّل حضور مبدإ تداخل المعارف وتكاملها في نصوصه وسرديته؛ فقد "كان صاحب وعي حادٍّ بظاهرة تداخل المعارف، سواء كان تداخلا داخليا أو خارجيا، وقد ظهر وعيه في التعامل مع المصطلحات الفلسفية المنقولة، التي كان يمارس عليها نقدا تداوليّا لاختبار كفاياتها ودلالاتها"[7].

وإذا كانت محصلة هذه الآراء هي التنويه بعبقرية أبي حيان والإشادة بمكانته العلمية وإبراز وجوه قوته ودهائه، وكشف معالم نبوغه، وتأكيد سمة الموسوعية وتداخل المعارف وتكامل العلوم في سرده ونثره، فإنَّ هذه الصّورة القبلية التي ترسخت في الأذهان، تنسجم مع صورة الذات النَّصيّة التي نقابلها في متن الكتاب انسجاما؛ فالخطاب السّردي في الإمتاع يبرز ذاتا متكلمة موسوعية تتنقّل بين العلوم، وتصول بين المعارف، ولا تتردّد في التَّفاعل مع أسئلة الوزير ابن سعدان على الرَّغم من صدورها عن عفوية وتلقائية ولا خيط ناظم بينها[8]. ولم تؤثر الانشغالات الثقافية المتنوعة للوزير في مشاركة التوحيدي وتفاعله في المسامرات، ذلك أنه متمّكن من علوم شتى. والظاهر أنّ شخصية التوحيدي تستجيب لمعايير وشروط مجالسة الوزراء، على الرغم ممّا وصفه به صديقه أبو الوفاء المهندس بقوله: "هذا وأَنْتَ غِرٌّ لا هَيْأَةَ لَكَ في لِقَاءِ الكبَرَاءِ، ومُحَاوَرَةِ الوُزَرَاءِ"(التوحيدي، ج1، ص: 5). ولا يخرج هذا الحكم –في نظرنا– عن المظهر الخارجي؛ لأنّ التَّوحيدي كما أكّد ياقوت الحموي "صوفي السمت والهيئة"(الحموي، 1993م: ج5، ص:1923)، أمّا صفاته الثقافية وما يمتاز به من عمق في التَّفكير، وسعةٍ في الاطلاع، واتساعٍ للمدارك، وتجاربٍ في الحياة، وإلمامٍ بالمعارف، كلُّ هذا جعله مؤهلا لأداء مهمته أداءً أشادَ به الوزير ابن سعدان نفسه؛ فقد ذكر في خاتمة أحد المجالس ما يلي:" هَاتِ فَائِدَةَ الوَدَاعِ، فَقَدْ بَلَغْتَ في المؤانَسَةِ غَايَةَ الإمْتَاعِ"(التوحيدي، ج2، ص: 23). كما أنّ هذا الوزير البويهي قد وصلته الصُّورة الثقافية الإيجابية التي راجت عن أبي حيّان التوحيدي، وممّا يؤكد هذا قوله في مستفتح الليلة

الأولى:" قَدْ سَأَلْتُ عَنْكَ مَرّاتٍ شَيْخَنَا أبا الوفاء، فذَكَرَ أَنَّكَ مُرَاعٍ لأَمْرِ البِيمَارسْتَانِ مِنْ جِهَتِهِ، وَأَنَا أَرْبَأُ بِكَ عَنْ ذلكَ، وَلَعَلِّي أَعْرِضُكَ لشَيءٍ أَنْبَهَ مِنْ هَذا وأَجْدَى، ولذَلِكَ فَقَدْ تَاقَتْ نَفْسِي إلى حُضُورِكَ للمُحَادَثَةِ والتَّأْنِيسِ، ولأتعَرَّفَ مِنْكَ أَشْيَاء كَثِيرَةً مختلِفَةً تُرَدَّدُ في نفسي علَى مَرِّ الزَّمَانِ..."(نفسه، ج1، ص: 19). يبرز هذا الملفوظ شغف الوزير وتلهّفه إلى ملاقاته؛ فقد سأل "مرات" أبا الوفاء، و"تاق" إلى سماع حديثه، ولا شكّ أن هذه الصّورة الجاهزة أو القبلية قد أسهمت في إثارة مشاعر الرغبة والاشتياق هذه، إذ يُعبّر قول الوزير عن اقتناع راسخ بأنَّ أبا حيّان نموذجٌ للمثقّف الجدير بالمجالسة ومبادلة الأحاديث، فهو يعبّر عن غرضه بما يوحي بأنّ في التوحيدي الأديب والمثقف ما يشفي غليله، ويكبح جماح أسئلته التي تتردّد منذ زمان ولم يجد مجيبا لها. على خلاف ما وصفَ به أبا الوفاء المهندس: "وأَمَّا أبو الوَفَاءِ فَهُوَ والله ما يَقْعُدُ بِهِ عَنِ المؤانَسَةِ الطيِّبَةِ والمساعَدَةِ المطْرِبَةِ والمفَاكهَةِ اللَّذيذَةِ والمواتَاةِ الشَّهِيَّةِ، إلا أنَّ لَفْظَهُ خُرَسَانِيٌّ، وإشارَتَهُ ناقِصَةٌ، هذا مَعَ ما اسْتَفَادَهُ بمقامِهِ الطَّوِيلِ ببَغْدَادَ، والبَغْدَادِيُّ إذا تَخَرْسَنَ كانَ أَعْلَى وَأَظْرَفَ مِنَ الخُرَاسَانِيِّ إذا تَبَغْدَدَ"(التوحيدي، 2008م: 32). يشير هذا الملفوظ إلى المقارنة المضمرة التي يمكن استشفافها بين شخصيتين: الأولى لأبي حيان التوحيدي الذي جمع كلّ خصائص الجليس المرغوبة لدى الوزير، والثانية لأبي الوفاء المهندس الذي نفّرتْ عجمته الطّافحة الوزير عن مجالسته. وقد أسهمت عوامل كثيرة في تكوين التوحيدي، ولعلّ أبرزها عمله في النسخ والوراقة، وتتلمذه على علماء كبار(9). وهناك إشارات في متن الكتاب تبيّن – إضافة إلى ما سبق– أنّ التوحيدي كان على دراية بأبجديات المجالس وخصوصياتها، ومتقنا لفنون التواصل مع المتلقين خصوصا أصحاب السلطة وذوي النفوذ، ونتلمّس هذا من خلال التماسه من الوزير التخلي عن "الرَّسْمِيَّاتِ" وخضوع المحاورات لأسلوب مفعم بالحرية والانطلاق، يقول التوحيدي:"قُلْتُ: يُؤْذَنْ لي في كَافِ المخَاطَبَةِ، وَتَاءِ المواجَهَةِ، حتَّى أَتَخَلَّصَ مِنْ مُزَاحَمَةِ الكِنَايَةِ وَمُضَايَقَةِ التَّعْرِيضِ، وَأَرْكَبَ جُدَدَ القَوْلِ مِنْ غَيْرِ تَقِيَّةٍ ولا تَحَاشٍ، وَلا مُوَارَبَةٍ ولا انْحِيَاشٍ"(التوحيدي، ج1 ص: 21). إنَّ الملفوظ يبرز متكلّما ملمّا بأدبيات التواصل مع الكبراء والوزراء؛ فهذا إلماع ضمنيّ إلى تميّز الخطاب في حضرة السلطة بميزات خاصة؛ لأن التَّباين الاجتماعي (وزير/ ورّاق)

يفرض تباينًا في الخطاب، واختلافا في مراتب الكلام، وتَنبّهُ التوحيدي إلى هذه القضيّة أمَارَةٌ تجسّدُ صورة الأديبِ الموسوعيّ الضَّليع بقواعد التخاطب، وبمقامات الخطاب، كيف لا وهو تلميذ الجاحظ(10)، وأنَّ لتلميذٍ كالتّوحيديّ أن يتجاهل قواعدَ أستاذه؛ فقد ذكر الجاحظ جملة من القوانين الناظمة للتّخاطب الناجع، من خلال احترام شروط المقام، ومراعاة أحوال السامعين، يقول:" ينبغي للمتكلّم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ولكل حالة من ذلك مقاما، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات"(الجاحظ، 1998م: ج1، ص:138). وقد أومأ الجاحظ إلى نباهة المتكلم في مراعاة مقام السامع، وحسن اختيار الكلام بما يتوافق مع مكانته، نتبيّن هذا في قوله:"أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش، ساكن الجوارح، قليل اللحظ، متخير اللفظ، لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة ولا الملوك بكلام السوقة"(الجاحظ، ج1، ص:92). ولا شكّ أن التوحيدي قد متح منها وتمثّلها وتأساها عِلمًا وعملاً.

أما موسوعية أبي حيّان، فتتجلى أكثر ما تتجلى، في تنقّله وارتحاله بين العلوم والمجالات، الأمر الذي جعل الباحثين يصنّفون كتاب الإمتاع والمؤانسة ضمن "الأدب العام"(الغرافي، 2015م: 118)؛ فهو "شكل من أشكال التداخل بين أدب الأسمار والمجالس وكتابة النثر في مفهومه التألفي والموسوعي"(ابن رمضان،2001م:231). فالكتاب يحوي ضروبًا معرفيَّة مختلفة، ويتصدّى لقضايا متنوعة: لغويّة، فلسفيّة، معجميّة، نحويّة، سياسيّة أخلاقيّة، دينيّة، اجتماعيّة، تاريخيّة، ثقافيّة، علم الكلام، الترجمة، التصوف، الضحك المجون، التفسير...إلخ. ويمكن استجلاء نباهة أبي حيان وإحاطته ونبوغه في ذخيرته الواسعة والمنبسطة، والتي تسترفد من منابع ثرّة: الثقافة اليونانية، والقرآن الكريم، والسنة النبوية وأشعار العرب، والحكم، والأمثال، ومأثور القول. كما يشهد تقديم المادة المعرفية في أنواع أدبية متعدّدة، وأنماط خطابية متشعّبة، على حنكة التوحيدي وأصالته وموسوعيَّته، فنحن

نلفي في كتابه: الرسائل، والوصايا، والمناظرات، والمفاضلات، والأخبار، والمحاورات والأدعية، والمناجيات...إلخ

هذا التنوّع المعرفيّ الذي يطبع الخطاب السّردي في رسالة الإمتاع والمؤانسة، يقدّم صورة عن الذات المتكلّمة التي سطّرت ذاتيتها، وطبعت الكتاب بمعالِمها الَّتي لا تخفى.

وجدير بالذكر أنّ صورة المتكلِّم الموسوعيّة وإن كانت ملمحًا يطبع نثرَ التَّوحيدي جميعه، فإنها في إطار المسامرة ارتبطت بوظيفة تأثيريّة تداوليّة، إذ رام المتكلم أداء وظيفتيه التثقيفية والإمتاعية اللتين أنيطتا به، وذلك حتى ينال رضا الوزير ابن سعدان، ويحقق الحظوة في مجلسه، وتقربنا أحد الملفوظات من هذا الملمح، فقد جاء في متن الرسالة: "فقُلْتُ قَبْلَ: كُلُّ شَيءٍ أُرِيدُ أَنْ أُجَابَ إليهِ يَكُونُ ناصِرِي عَلَى مَا يُرَادُ مِنّي إنْ مُنِعْتُهُ نُكِلْتُ، وَإِنْ نُكِلْتُ قَلَّ إفْصَاحِي عَمَّا أُطَالِبُ بِهِ، وَخِفْتُ الْكَسَادَ، وَقدْ طَمِعْتُ بالنَّفَاقِ، وانْقَلَبْتُ بالخَيْبَةِ، وَقَدْ عَقَدْتُ خِنْصِرِي عَلَى المسْأَلَةِ. فَقَالَ – حَرَسَ الله رُوحَهُ –: قُلْ – عَفَاكَ الله – مَا بَدَا لَكَ فَأَنْتَ مجابٌ إِلَيْهِ مَا دُمْتَ ضَامِنًا لِبُلُوغِ إِرَادَتِنَا مِنْكَ، وَإِصَابَةِ غَرَضِنَا بِكَ"(التوحيدي، ج1 ص:20). يبرز هذا الملفوظ رهان التوحيدي على تحقيق غاية مجالسة الوزير في الإمتاع والتأنيس، وهو ما يسوّغ تفاوض المتكلم حول ما سيحول دون بلوغ هذا المرام، والتماسه تجاوز العراقيل التي من شأنها أن تشوّش عليه أثناء أداء مهمّته. ونفهم من هذا رغبة التوحيدي في تسخير كلّ إمكاناته الموسوعية ومؤهلاته الثقافية ليحقِّق غاية "المحادثة والتأنيس"، وما الظهور بمظهر الأديب الموسوعيّ إلّا شكل من أشكال التَّأثير، إذ غاية المتكلم إثارة عواطف الاستحسان والرّضا لدى الوزير ابن سعدان.

وتتعانق صورة المتكلم الموسوعية مع صورة الأديب الممتع والمؤنس وهو ما يعزّزُ مكانته ويُعلي من شأنه؛ إذ يُبرز النَّسيج النّصّي لرسالة الإمتاع والمؤانسة متكلّما ينزع نحو الإمتاع والتأنيس والإضحاك والتنفيس، ويحشد كلّ مؤهلاته التي تفي بهذا الغرض؛ فمن المعلوم أنّ تحقيق وظيفة التواصل الأساس لا تقتضي متكلما موسوعيا جادّا يُغرق المجلس بالمعارف الجمّة، ويرهق كاهل الوزير بالقضايا الشائكة[11]، وإنّما – إلى جانب ذلك – يستوجب

متكلّما خفيفَ الظِّل وفكِها ضَحوكًا؛ إذ كيف للوزير ابن سعدان والقارئ بصفة عامّة أن "يحتمل هذا المضمون الجاد من دون وسيلة لذيذة تحبّبه إليه؛ من نوادر وأخبار هزلية وماجنة وغريبة، يوردها المؤلف بين ثنايا نصوصه الجادّة حتى يفلح في توصيلها إليه؟"(مشبال، 2010م:61).

إنّ ارتكانَ الذَّات المتكلّمة إلى تجسيد دور المؤنس والمضحك يرجعُ إلى مقصد أساس هو نيل رضا الوزير البويهي عبد الله العارض، عبر تأدية الدَّور المنوط به في المجلس، مثقِّفًا ومؤنِسًا وممتعًا، وهو ما يسوّغ دَيْدَن التوحيدي نحو الظهور بمظهر الجليس النَّموذجيّ الَّذي يبتغي سبيلا وسطًا ومعتدلا بين الجد والهزل، والوقار والمجون، والتّعقّل والجنون، إنه لا يركن إلى الجدّية المفرطة، ولا ينساق إلى الهزل حدَّ الميوعة، بل إنه بين ذلك يتقلّب حسب إملاءات المقام وشروط تفاعل المتلقّي[12]. ويمكن تلمّس هذا الملمح بصورة واضحة في "ملحة الوداع" التي تختتم بها مسامرات المجلس؛ فهي "شكل من أشكال الفكاهة، وإنما الفكاهة كما قد علم القارئ لون من ألوان اللَّطائف التي تزيّن بها الموائد في المآدب" (ابن رمضان، 2005م:19-20). وتضمّ ملحة الوداع في الإمتاع والمؤانسة أنماطًا هزليّة مختلفة كالملح والطرائف والنوادر والأشعار وأخبار المجون وأحاديث الحمقى[13].

وقد استطاعَ المتكلّم بما يمتاز به من مهارات وملَكات، تحقيق الدَّور الذي أنيط به؛ إذ تؤكّد ملفوظات عديدة على لسان الوزير فَلاح التّوحيدي في وظيفته، ونذكر تمثيلا لا حصرا:

- هَذَا فِي الحُسْنِ نِهايَة (التوحيدي، ج1، ص:41).
- هذا واللهِ طَرِيفٌ (نفسه، ج1، ص: 161).
- هذا كلامٌ عَجِيبٌ مَا سَمِعْتُ مِثْلَهُ عَلى هَذا الشَّرْحِ والتَّفصِيلِ (نفسه، ج2، ص:22).
- ما أَكْثَرَ رَوْنَقَ هَذَا الْكَلامِ (نفسه، ج2، ص:23).
- بَلَغْتَ فِي المؤانَسَةِ غَايَةَ الإمْتَاعِ (نفسه، ج2، ص:23).
- ما أَحْسَنَ هَذا المجْلِسَ (نفسه، ج2، ص:103).
- لله درّ هذا النَّفَسِ الطَّوِيلِ والنَّفْثِ الغَزِيرِ (نفسه، ج1، ص:95).

ومن ثمّ، يمكن القول إنّ سمةُ الموسوعيَّة وما تُحققه من متعةٍ ومؤانسةٍ ومنفعةٍ قد اضطلعت بوظيفة تداولية تروم نيل رضا الوزير ابن سعدان(14).

خاتمة:

حاولت الدّراسة أن تتوقّف عند طبيعة السّرد العربي القديم، من خلال دراسة سمة الموسوعيّة التي تطبع النّصوص النثرية العربيّة القديمة بشكل لافت، مؤشّرة على الوفرة المعرفيّة وامتداد أطراف العلوم وتشعّبها لدى ثقافة الأديب العربيّ، وقد تتبّعنا هذه السّمة في كتاب الإمتاع والمؤانسة باعتباره نصًّا ترسّليّا قائمًا على السّرد الموسوعيّ الذي يترحّل فيه مؤلّفه في ضروب المعارف، وأصناف المجالات العلمية، مستحضرا مختلف الأجناس التعبيريّة والأنماط القوليّة، وهو ما يدفعنا إلى الإقرار بأنّ النثر العربيّ القديم نثر يقوم على الإمتاع والإنفاع.

الهوامش والإحالات

(1) – هو العنوان الفرعي لكتاب الإمتاع والمؤانسة في تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين.

ومن الباحثين الذين ذهبوا إلى اعتبار كتاب الإمتاع والمؤانسة مسامرات نذكر على سبيل التمثيل لا الحصر:

– إبراهيم عبد العزيز زيد، السرد في التراث العربي: كتابات أبي حيان التوحيدي نموذجا، ص: 58.

– هشام مشبال، البلاغة والسرد والسلطة في الإمتاع والمؤانسة، ص:31.

(2)– نذكر على سبيل المثال لا الحصر:

– ألفت كمال الروبي، محاورات التوحيدي وتعدد الأصوات، مجلة فصول، ع4، أكتوبر 1995م ص:143.

– لطفي فكري محمد الجودي، فعل الكتابة النثرية عند أبي حيان التوحيدي، ص:95.

(3)– من الباحثين الذي انتبهوا إلى هذه الخصوصية النوعية الدقيقة لكتاب الإمتاع والمؤانسة نذكر على سبيل التمثيل:

– باشا العيادي، فن المناظرة في الأدب العربي، ص: 117.

– عبد الله البهلول، الحجاج الجدلي خصائصه الفنية وتشكلاته الأجناسية، ص: 263.

(4)– الإمتاع والمؤانسة، ج1، ص: 8.

(5)– يتحقّق مبدئا تطابق المؤلف المرجعي بالسّارد والشخصية الرّئيسة الذي وسم به فيليب لوجون ميثاق السيرة الذّاتية. أُنظر: السيرة الذاتية الميثاق والتاريخ الأدبي، ترجمة: عمر حلي، الطبعة الأولى، المركز الثقافي العربي، ص: 25.

(6)– آثَرْنا هذا المفهوم عن مفاهيم أخرى كالمثقف والعالم، لاندغام مدلوله مع الصورة الموسوعية التي نحن فيها بسبيل في هذا المبحث، فقد استقر في التراث العربي القديم اعتبار الأديب ذلك الإنسان الذي يجمع فنونا جمّة وعلوما عدّة، وتفصح قولة ابن قتيبة بجلاء على هذا الاصطلاح:"من أراد أن يكون عالما فليطلب فنّا واحدًا، ومن أراد أن يكون أديبًا فليتّسع في العلوم." أُنظر: ابن عبد ربه، العقد الفريد، مطبوعات دار الكتاب العربي، بيروت، ج2، ص: 208.

(7)– محمد همام، تداخل المعارف ونهاية التخصص في الفكر الإسلامي العربي: دراسة في العلاقات بين العلوم، مركز نماء للدراسات والعلوم، بيروت، ط1، 2017م، ص:11.

(8)– المسائل التي يثيرها الوزير لا تتعلق – أغلبها– بإعداد مسبق فهي ترتبط بالمجلس واسترسال الكلام فيه، ونفهم هذا من قول الوزير نفسه: "تاقت نفسي إلى حضورك للمحادثة والتأنيس، ولأتعرف منك أشياء كثيرة مختلفة تتردّد في نفسي على مر الزمان، لا أحصيها لك في هذا الوقت، لكنّي أنثرها في المجلس بعد المجلس على قدر ما يسنح ويعرض." الإمتاع والمؤانسة، ج 1، ص: 19. وقد أشار أحمد أمين إلى هذا الملمح قائلا: "وموضوعات الكتاب متنوعة تنوعًا ظريفًا لا تخضع لترتيب ولا تبويب، إنما تخضع لخطرات العقل وطيران الخيال وشجون الحديث، حتى لنجد في الكتاب مسائل من كلّ علم وفن؛ فأدب وفلسفة وحيوان ومجون وأخلاق وطبيعة وبلاغة وتفسير وحديث وغناء ولغة وسياسة وتحليل شخصيات لفلاسفة العصر وأدبائه وعلمائه وتصوير للعادات وأحاديث المجالس، وغير ذلك مما يطول شرحه." مقدمة الإمتاع والمؤانسة، ص:س.

(9)– في عدديْ مجلة فصول المصرية (المجلّد 14 العددان 3 خريف 1995م، و4 شتاء 1996م.) مقالات مهمّة أسهبت في الحديث عن حياة أبي حيّان التوحيدي وأساتذته ومؤلّفاته، يمكن الرّجوع إليها للتّوسع أكثر.

(10)– يشير كثير من الدارسين إلى جاحظية التوحيدي، يقول باشا العيادي –على سبيل التمثيل–: "لعلّه لا يختلف باحثان في أنّ ما كتبه أبو حيان التوحيدي كان امتدادا لما كتبه الجاحظ في أدبه عامّة وما صاغه في أسلوبه خاصة". ويشير الباحث إلى أنّ تأسي التوحيدي للجاحظ اعترف به التوحيدي نفسه يقول: "ولقد اعترف التوحيدي نفسه بذلك في مواضع عدّة من أدبه أثنى فيها على الجاحظ وقرّضه وأدبه، وصرّح بانخراطه في مدرسة الجاحظ البيانية فقال:'حكيت عن أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ الكناني، وكتبه هي الدر النثير، والنور المطير، وكلامه الخمر الصّرف، والسحر الحلال'. (التوحيدي، البصائر، ج231/3)". فن المناظرة في الأدب العربي، ص:116.

ونجد إشارة أخرى مهمّة تنبّه لها صالح بن رمضان يقول فيها: "مهّد أبو حيان التوحيدي لكتابة أدب المجلس بذكر بعض الروايات الدالة على إلمامه بالتراث الخاصّ بآداب المجالسة والمحادثة وقد هضم، بلا شك، أصول البيان التي حدّدها الجاحظ في حديثه عن مقامات التلفظ الشفوي". أُنظر دراسته: الأدب عند التوحيدي بين أسر الكاتب وتحرّر الناثر، مجلة حوليات الجامعة التونسية العدد رقم 49، 1 يناير 2005م، ص:78.

(11)– يؤكّد مصطفى ناصف أنّ تصور التوحيدي للكتابة قائم على مبدإ المزاوجة بين الإنفاع والإمتاع يقول:"كان أبو حيّان في هذا شديد الإعجاب بالجاحظ، كان يتطلّع إلى ما يسمى الحديث الجيد وفي وصف هذا الحديث يستعمل كلمة العقل، وهي كلمة شديدة المرونة والاختلاط، ولكن من الواضح صلة بعض استعمالاتها بالحس الفكاهي والجدة والطرافة". أُنظر: محاورات مع النثر العربي سلسلة عالم المعرفة، العدد 218، فبراير 1997م، ص:161.

(12)– سبق أن أومأ محمد مشبال إلى أنّ "الاعتدال كان مطلبا بلاغيا" تصوّر كرسته أخبار الجاحظ وتشرّبه التوحيدي وسعى إلى تكريسه في أخباره. أُنظر كتابه: البلاغة والسرد: جدل التصوير والحجاج في أخبار الجاحظ، ص:75.

(13)– أشار هشام مشبال إلى وظائف "ملحة الوداع" في كتاب الإمتاع والمؤانسة، حيث حصرها في وظيفتين:"تعنى الوظيفة الأولى بجلب الطرافة إلى الأخبار ذات الصبغة التعليمية المعرفية وتلوينها بالطابع الإمتاعي الشامل، وكذلك الترويح عن متلقي الخطاب المباشر والضمني، والإسهام إلى جانب ذلك في تعميق سمة الموسوعية التي تسم سرد التوحيدي. بينما تتوخى الوظيفة الثانية خدمة أو تفعيل أغراض بلاغية متعددة، تسعى جميعها إلى نسج حكمة فاعلة توجه أو تعلم أو تثقف بمعنى أنها تمارس وظيفة ما من وظائف التواصل". أُنظر كتابه: البلاغة والسرد والسلطة في الإمتاع والمؤانسة، ص:191.

(14)– يشير علي أومليل إلى أهمية الكلام في بلوغ الحظوة لدى صاحب المجلس قائلا: "يتّخذ 'الكلام' أهمية كبرى داخل المجلس، فرُب كلام يوجه إلى صاحب المجلس يكون مفتاحا للدخول إليه، أو لنيل الحظوة فيه. الكلام هو فرس الرهان داخل المجلس، به يكون الربح أو الخسران، ولعلّ هذا يفسر ما تزخر به الكتب من نصائح وتلقينات حول 'آداب الكلام'، وفنه وتقنياته، ومخاطره أيضا. وكذلك الصمت وكلّ 'الحكم' التي دبجت حوله. رُب كلام أوصل صاحبه إل الحظوة، ورب كلام آخر أهلكه أيضا". راجع كتابه: السلطة الثقافية والسلطة السياسية، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت، الطبعة 2، سنة 1998م، ص: 66.